الشعر

للأستاذ بنيامين خليل

كثيراً ما قامت موازنات بين الشعر والتصوير ؛ فقد قال (سيمونيدس) Simonides : «الشعر تصوير ناطق، والتصوير شعر صامت» . وقال (كوزن) Cousin : «الشعر أول فن من الفنون الجميلة ، لأنه يمثل غير المحدود خير تمثيل» . وقال أيضاً : «ولو أن الفنون — إلى حد ما — بعضها بمعزل عن البعض الآخر ، فإن فناً منها قد انتفع بموارد جميع الفنون ، ألا وهو الشعر . فمن الكلمات يستطيع صاحب القريض أن يصوغ صورة ، أو ينحت تمثالاً ، أو يحاكي المهندس المهارى فى تشييد المبانى . وفى مقدور الشعر أن يجمع بين عذوبة اللفظ والموسيقى . ففى الشعر كما يقولون تتلاقى جميع الفنون» .

إن قصيدة عصماء ممرض من الصور . ومما لا جدال فيه أن التصوير والنحت يطيعاننا — عن شىء لم نره من قبل — صورة أكثر وضوحاً من أى قول أو وصف ؛ ولكن إذا ماوقع الشىء تحت أنظارنا — تنعكس الآية — فنرى ثمة أموراً كثيرة يبرزها الشاعر أمامنا ، وقد كنا لا نراها قبلاً فى الشىء ذاته من تلقاء أنفسنا ؛ فالفنى هو الذى يصنع الأشياء واضحة كل الوضوح ، أما الشاعر فهو الذى يخلق الأحداث والمعانى .

الشاعر العبقرى مهبط الوحى والإلهام ، ولذا نرى له حاسة فائقة لإدراك الجمال ، وله مشاعر أدق من مشاعر معظم الرجال ، مشاعر مضبوطة ضبطاً محكماً . قد يكون المرء شاعراً ولو لم يدرس شيئاً عن علم العروض ؛ أما من يكتب شعراً رديئاً ، أو حقيراً ، فهو ليس بشاعر . لا يحيا الشعر ويدوم طويلاً إلا إذا كان شعراً حياً ، إذ أن ما يصدر عن العقل والعاطفة يفسكب فى القلب .

إن الشعراء والكتاب الذين يعدون فى الطبقة الثانية سرعان ما تنقرض ذكراهم، ويتقلص ذكرهم، ويتوارى فى زوايا النسيان ؛ أما العباقرة منهم فآثارهم خالد إلى الأبد . ألم يعمر شعر (هوميروس) Homer حوالى ٢٥٠٠ سنة دون أن يفقد حرفاً من حروفه ، أو مقطعاً من مقاطعه ، على حين نرى قصوراً شاهقة وقلاعاً حصينة قد دمرت وأتى عليها العفاء ؟ أجل لا يتسنى لنا أن نحصل

وأخيراً من الضرورى جداً ألا يبقى الباحث فى التاريخ فى بلد واحد وفى دائرة محصورة ؛ بل يلزمه السفر والارتحال إلى بلدان مختلفة ، لا من أجل البحث التاريخى فى ذاته فقط ، بل لكى يرى آفاقاً جديدة ، ويكسب خبرة بالناس وبالأوساط المختلفة . ومن الضرورى أن يقضى زمناً فى البلد الذى يدرس تاريخه . والأفضل أن يبدأ الباحث سفره بعد أن ينهى تعليمه الجامعى فى بلده الأصلى ، وبعد أن يقطع شوطاً فى الدرس ، وبعد أن يتعين له العصر الذى يرغب الكتابة عنه ؛ فيسافر وقد تزود بأسلحة كافية وبدأ طريق البحث العلمى ، فيمضى فى الدرس والكشف عن الحقائق التاريخية ، ويزور الأماكن المختلفة ، ويدرس ويتأمل ؛ والنفس العالية لا تشعر بأنها غريبة فى أى مكان

وهذا كله ملخص عن العلوم المساعدة وعن الإعداد اللازم لمن يتصدى لكتابة التاريخ . وليس المقصود بذلك التوسع فى كل هذه النواحى لذاتها ؛ فإن هذا غير مستطاع . وإنما يكفى المعرفة العامة بقراءة بعض الكتب . وقد تزيد المعرفة فى نواحى معينة من هذه العلوم المساعدة ، على حسب طبيعة العصر الذى يرغب الباحث فى دراسته والكتابة عنه . وقد يبدو من العسير جمع هذه الثقافة العامة ؛ ولكن تخصيص حوالى ست سنوات أو سبع، تفعل العجائب، وتكفى للوصول إلى مستوى مناسب، يزداد بالتدريج . وروح العلم الصحيح لا تعرف العقبات ؛ والإخلاص والصبر يسيلان بالباحث إلى الغرض فى أغلب الأحيان .

(يتلى)

جمعى عثمان

على تماثيل كورش والإسكندر قيصر ، أو على صورهم الحقيقية ، لأن الصور الأصلية لا تدوم ، وما ينقل عنها تنقصه الحياة وتعوزه الحقيقة . أما الصور الذهنية لعبقرية الرجال وعلمهم ، فتبقى في الكتب بعيدة عن عبث الزمن متجددة في كل حين . وليس من الصواب أن نسميها صوراً لأنها تتوالد وتلقى بذورها في عقول الناس فتثمر في الأجيال المتعاقبة أحداثاً وآراء لا حد لها

* * *

إذا كان اختراع السفينة فكرة نبيلة ... تلكم السفينة التي تنقل الثروة والتاجر من مكان إلى آخر ، وتصل البلاد المتنائية بعضها ببعض فتتبادل محصولاتها — فما أحرانا أن نعظم الآداب التي تحاكي السفن في كونها تمخر عباب البحار ، ولكنها بحار الزمن المترامية الأطراف ، فتربط العصور المتوغلة في القدم ، فينتفع كل عصر بحكمة العصور الأخرى وثقافتها واختراعاتها !

يحتاج الشاعر إلى مؤهلات كثيرة . يقول (كوزن) Cousin : «من الذي وضع تصميم هذه القصيدة المثل؟ وما الذي ألبسها الحياة والبهاء ؟ الحب . وما الذي أرشد العقل والحب ؟ الإرادة » . ومن المسلم به أن لكل من الرجال قسطاً من الخيال ، أما الحب والشاعر فمن الخيال قد خلقا كلاهما

إن عين الشعر ترنو في سمو وجلال ، وتسبح من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء ؛ وبينما خيال الشاعر يتصور الأشياء غير المنظورة ، ترى يراعته تصوغها في قالب فني جميل ، تعين للعدم مكاناً وتعطيه اسماً

يقول (شيشرون) Ciceron الخطيب الروماني الشهير في خطبته عن (أركياس) Orchias : « أليس هذا الرجل جديراً بحبي ، جديراً بإعجابي ، جديراً بكل ما أستطيع من وسائل دفاعي عنه ! إننا قد تعلمنا عن أكثر الناس حكمة أن التربية والتعليم والمران تكسب المرء تفوقاً في أي فرع من فروع العلم غير الشعر . أما الشاعر فقد صاغته الطبيعة وأيقظته القوى العقلية ، وأوحى إليه بما نسميه روح الإله نفسه » . يقول أفلاطون : « الشعراء أبناء الآلهة ومترجموهم »

* * *

يرفع الشعر الحجاب عن جمال العالم ، ويبسط على الأشياء المألوفة فيضاً من النور وهالة من الخيال . إن من يحب الشعر حباً حقيقياً لا يعجز عن إحراز قسط وافر من السرور بمظاهر الطبيعة التي لا يرى فيها محبوبها إلا جمالاً ، ولا يسمعون منها إلا أنغاماً موسيقية . على أن الطبيعة — مع ما فيها من أنهار عذبة ، وأشجار مثمرة ، وأزاهير أرجة عطرة — لم تبرز الأرض في حلة أبهى وأجمل مما وصفها به الشعراء

ترى الشاعر ينقلنا من المدينة التي تنعقد فوقها سحب الدخان بطريقة ساحرة — ينقلنا من جو ملبد بالدخان إلى الهواء الطلق ، إلى الشمس الساطعة ، إلى حفيف أشجار الغابات ، إلى خرير المياه ، إلى تلاطم الأمواج بالرمال — ويساعدنا الشاعر على نسيان هموم العيش ومتاعب الحياة كأننا مستغرقون في حلم من لذيذ الأحلام

* * *

يجب أن يكون الشاعر ذا معرفة لا بالطبيعة الإنسانية فحسب ، بل بالطبيعة بأكملها أكثر مما يتصف به غيره من الرجال . أخبرنا (كراب روبنسون) Crabbe Robinson أن رجلاً استأذن في مشاهدة حجرة مكتب (وردسورث) Wordsworth ؛ فأجابته الخادم قائلة : « هذه حجرة مكتب سيدي ، ولكنه يقوم بالدرس في الحقول »

* * *

ولنقدر الشعر حق قدره يجب ألا ننظر فيه نظرة سطحية ، أو نقرأه على عجل ، أو نطالعه لكي نتكلم أو نكتب عنه ، بل يجب أن يركز الإنسان عقله في وضعه الصحيح

إن كنوز الشعر التي لا تحصى في متناول كل منا ؛ فقد يكون خير الكتب أرخصها ، إذ بثمن كوب من الجعة أو قليل من تبغ ، نستطيع أن نشتري أحد مؤلفات شكسبير أو ملتون ،